الهدايات القرآنية في قصة آدم عليه السلام

إعداد:

علي زين العابدين الحسيني سيد أحمد زايد
طالب دكتوراة في قسم الفقه وأصوله،
أكاديمية الدراسات الإسلامية بجامعة ملايا

ود.حسام الدين مخلوف
دكتوراة في القرآن والسنة

Elazhary77@hotmail.com
Habibhoussem7@gmail.com

بحث مقدم للمؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس ٨).
نظمه مركز بحوث القرآن الكريم بجامعة ملايا، بالشراكة مع: كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم بجامعة أم القرى.
الأربعاء والخميس ٥- ٦ ربيع الأول ١٤٤٠هـ، الموافق ١٤- ١٥ نوفمبر ٢٠١٨م.
ماليزيا- كوالالمبور

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث:

تناول هذا البحث الدراسة والتحليل لمفهوم الإنسان وصفاته ووظيفته ودور الشيطان في مساره من خلال قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم، وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الهدايات القرآنية الكبرى من حكمة خلق الإنسان وصلاحه، وترشيد مساره على الوجه المطلوب لعمارة الأرض والاستخلاف فيها، وتنبيهه على خطوات الشيطان في إغوائه، وكيفية الثبات على الصراط المستقيم. واعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي في جمع الآيات القرآنية المتحدثة عن الإنسان وصفاته ووظيفته، وعن إغواء الشيطان له، وتوبة آدم وذريته، وما تعلق بها من نصوص تفسيرية، ومن ثمَّ المنهج التحليلي لاستخلاص أهم هدايات القرآن الكريم المتعلقة بوظيفة الإنسان في ظل إمكاناته وطاقاته، وسبل النجاة من إغواء الشيطان وخطواته.

ومن أهم النتائج التي توصَّل إليها الباحثان: أنَّ بعض آيات قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم قد رسمت معالم الطريق لابن آدم في حياته، وبينت له دور الشيطان في مساره، كما احتوت على هدايات أساسية تعتبر بمثابة الدليل للإنسان في رحلة سيره إلى الرحمن.

مقدمة:

سيتحدث الباحث في هذه الدراسة عن الهدايات الكبرى لمفهوم الإنسان من منظور القرآن الكريم، والتي دعت إليها قصة آدم عليه السلام، وتبيين امتدادها الواقعي في حياة بني آدم منذ بداية الخلق إلى قيام الساعة.

وذلك كما يلي:

أولا: الإنسان من منظور القرآن:

يعتبر الإنسان في القرآن الكريم محورًا في العملية التكليفية، فقد استهدفه الحق سبحانه وتعالى بخطابه، واصطفاه على باقي المخلوقات برسالته، وكلَّفه بمهمة الخلافة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، وقد أبرز العلماء أبعاد هذا الخلق ففي هذه الآيات على إيجازها الإجابة الكاملة عن هذه الأسئلة التي ينبغي أن نحدد جوانبها قبل الدخول في تفصيلات "النفس الإنسانية، ومكوناتها المختلفة، ما الإنسان؟ إنه خليفة الله في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، وكلمة الخلافة كلمة ضخمة ذات إيحاءات. فأول إيحاءاتها أنَّ هذا الكائن الإنساني كائن عظيم القدر ذو أهمية بارزة في الحياة. فهو خليفة... الله! خليفة الخالق المبدع المسيطر على كل قوى الكون. ولا بد للخليفة أن يكون مزودًا بأدوات الخلافة. وإلا فلا معنى لخلافته.

ثانيا: مفهوم الإنسان في التصور القرآني:

إنَّ القرآن الكريم في معرض حديثه عن هذا المخلوق، يذكره مرة في موضع المدح، وتارات في موضع الذم، دون أن يعني ذلك في رؤيتنا القرآنية أنه يجمع بين المدح والذم في آن واحد، وإنما هذه الصورة تعكس حقيقة الطبيعة البشرية التي تكشف بحسب النَّسق القرآني أنَّ هذا الإنسان يحمل معاني الاستقامة على منهج الحق سبحانه وتعالى، كما يحمل إمكانية الخلود إلى الأرض، ذلك أنه فطر على الاستعداد لكليهما، فهو أهل لممارسة الخير بحركته الإيجابية، والشر إذا تحرك حرك عبثية في هذا الكون.

ثالثا: مكانة الإنسان في القرآن:

إنَّ مكان الإنسان كما يرى العقاد أنه أشرف في ميزان العقيدة، وفي ميزان الفكر، وفي ميزان الخليقة التي توزن طبائع الكائن بين عامة الكائنات، بل هو الكائن الأصوب في التعريف من الملَك الهابط، ومن الحيوان الصاعد، وأشرف في التقدير من هذا وذاك، ولهذا يرى العقاد بأنَّ الإسلام خاطب في الإنسان صفته الباقية، وخاصيته الملازمة، وهي خاصية النفس الناطقة بين عامة الأحياء، أو خاصية الضمير المسؤول الذي يحمل تبعته، ولا تغنيه عنها شفاعة، ولا كفارة من سواه[1].

مما يعني أنَّ شرف الإنسان بناءً على نظرة القرآن الكريم ليس منبعه تركيبته المادية والطبيعية، بقدر ما يكمن في معناه، ووجوده المعنوي، وبفضل النفخة السماوية ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢]، التي جعلت ارتقاء هذا المخلوق ممكنًا في كل حين.

وإنَّ المتتبع لآيات الذكر الحكيم يدرك تركيز القرآن الكريم على البعد المعنوي للإنسان أكثر من طبيعته الظاهرية، هذا ما يؤكده العقاد بقوله: "الإنسان يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية، ودوافع الحياة الحسية، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء، وسر الوجود الدائم، وعلمه عند الله تعالى... وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبها المحدود، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلاّ بإيمان وإلهام"[2]. ومن هنا فإنَّ القرآن الكريم كشف عن دلائل هذه الرفعة، وتعزز القيمة الأصيلة لهذا المخلوق، وذلك في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١- ٤].

وقد أشار المفكر عبد الوهاب بوحديبية إلى أبعاد هذه الإنسانية ومنطلقاتها، بأنها تنبع أساسًا من القرآن الكريم الذي أسس نظرة فلسفية حقيقية للإنسان، ولا يتجلى ذلك من خلال عنواني السورتين سورة الإنسان، وسورة الناس فحسب، بقدر ما يتجلى في التعريف بطبيعة الإنسان، ومكانته في العالم، ثم

---

١ انظر، عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن، (د.م: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، د.ت)، ص١٦-١٧- ١٩.

٢ عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن، ص٣١.

أوضح مبادئ الإنسية القرآنية، والتي تتجذر حسب رأيه في الأسطورة المؤسسة للجنس البشري، والتي تعرف بوضعيته "الإنسان في الكون"[1].

رابعا: الأمر بالسجود لأول إنسان _آدم عليه السلام:

إنَّ قصة آدم عليه السلام تمثل أساسًا محوريًا في إبراز معالم هذه الإنسية في التصور القرآني، إذ بعد أن خلق الله آدم عليه السلام أمر الملائكة بالسجود له، تقديرًا لمكانته واعترافًا بقيمته المعنوية التي تظهر مظاهر تكريم الله تعالى لهذا الكائن الجديد، وإنَّ سجود الملائكة بأمر منه عز وجل هو في حد ذاته تعزيز لهذه القيمة، بل ويحمل دلالات ومعان كثيرة؛ لأنَّ السجود في الأصل لا يكون إلاّ لله وحده، مما يوحي بأنَّ هذا السجود لهذا المخلوق المكرَّم هو مظهر تكريمي على باقي الموجودات الأخرى، إذ يمثل ذروة الشرف وقمته، وهو يتوجه إليه بالخلافة، ويعهد إليه بالتكليف، والتصرف في مسخَّرات الكون ومقدَّراته، وإن كانت طبيعة الصراع بين الحق والباطل، وجدليته تفرض وجود قطب معادٍ للإنسان، والذي يمثل خط الشر، فكان الشيطان بمثابة العدو الرئيس الذي يعرقل مسيرة هذا الإنسان في الأرض، وإنَّ المعركة الأولى بدأت برفضه السجود لآدم عليه السلام، حيث علَّل ذلك بأفضليته العنصرية عليه، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، وهذا الرفض يعني أنه يريد لذاته هذا التفوق والشرف، وليس لآدم عليه السلام، ولكنه لم ير من هذا التفضيل الإلهي إلا مادة هذا الخلق، ولم يتجاوز ذلك إلى ما وراء عنصر التراب من قدرات فائقة في هذا المخلوق، وما أوتيه من أجهزة وعي بإمكانها أن تكشف عن أسرار الوجود، وقوانينه، وسننه، كما يقول بوحديبة وكأنه "لم يفهم شيئًا عن المشروع الماورائي الإلهي، ومن البعد الأخلاقي للخلق، فأفسد الموكب، وأدخل النفي في قلب المصير الإنساني ذاته"[2].

وهذا يؤكد أنَّ هذا المخلوق هو كائن خاص، ذو كيان متميز، مزوَّد بخصائص الخلافة، وأول هذه الخصائص الاستعداد للمعرفة النَّامية والمتجدِّدة، ومجهَّز لاستقبال المؤثِّرات الكونية، والانفعال بها، والاستجابة لها، ومن مجموع انفعالاته واستجابته يتألف نشاطه الحركي للتعمير، والتغيير، والتعديل، والتحليل، والتركيب، والتطوير في مادة الكون وطاقاته... للنهوض بوظيفة الخلافة.

وإن كانت خلافة هذا الإنسان مشروطة بالاستقامة على المنهج الرباني، وأداء حقوق العبودية لله تعالى، والوفاء بعهده، وميثاقه، بل ويُحَكِّم منهج الله في الأرض، وذلك من خلال تفاعله الإيجابي مع عناصر الحياة، والكون.

فالإنسان يمثل مكانة عليا في تصميم الوجود نظرًا لاستعداداته المعرفية، وما يزخر به من طاقات جعلته كريمًا عند الله تعالى، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]، ويشير العقاد إلى هذه الحيثية التي

---

١ عبد الوهاب بوحديبية، الإنسان في الإسلام، (تونس: دار الجنوب للنشر، د.ط، ٢٠٠٧م)، ص١٩.

٢ المرجع السابق، ص٢٠.

صنعت التميُّز في تراتبية الوجود عندما جعل العلق أول آية تلقاها صاحب الدعوة، كانت أمرًا بالقراءة وتنويهًا بعلم الله، وعِلم الإنسان، ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢) إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [اقرأ:١- ٥][١].

خامسا: حرية الإنسان:

إذا كان الإنسان قد خلق لعبادة الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فهذا يعني أنَّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يرى آثار هذا الخضوع في حركة الإنسان والكون معًا، وإن كانت باقي المخلوقات قد خضعت لله تعالى قسرًا، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، فإنَّ الخضوع الإنساني يتم وفق إرادة حرة؛ لأنه أوتي حرية الاختيار، وبهذا يكتسب الفعل الإنساني قيمة كبرى في هذا الخضوع الاختياري لمنهج الله تعالى، وعبادته، وطاعته، كما أوضح عبد المجيد النجار بأنه "قد تكون الحكمة من ذلك هي التفضل على الإنسان بهذه النعمة، والسعادة على الصعيد الدنيوي والأخروي، لما ركب في هذا المخلوق من ملكات إدراكية جعلته مناطًا للتكليف، وربما الموقف العقائدي الأسلم الإيمان بأنَّ الإنسان خلق لحكمة إلهية، وأنَّ جماع هذه الحكمة العبودية لله تعالى، عبودية يتأسس عليها تفضل إلهي بالنعمة"[٢].

سادسًا: تركيبة الإنسان:

قد جَمَعَ الله تعالى في عناصر تكوين هذا المخلوق ما يميزه عن غيره من خلال التركيبة المزدوجة، التي تجمع بين عنصر التراب بطبعته المادية، وبين العنصر الروحي، وتلك النفخة السماوية، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٨- ٢٩]، ولهذا يقول الراغب الأصفهاني: "وقد جمع الله تعالى في الإنسان قوى بسائط العالم، ومركباته، وروحانياته، وجسمانياته، ومبدعاته، ومكوّناته. فالإنسان من حيث أنه بوساطة العالم حصل، ومن أركانه، وقواه، أوجد هو العالم. ومن حيث أنه صغُر شكله، وجمع فيه قواه كالمختصر من العالم فإنَّ المختصر من الكتاب هو الذي قُلّل لفظه، واستوفي معناه. والإنسان هكذا هو إذا اعتبر بالعالم. ومن حيث أنه جعل من صفوة العالم، ولبابه، وخلاصته، وثمرته"[٣].

---

١ عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن، ص١١.

٢ عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٨٧م)، ص٥٥.

٣ أبو القاسم الحسين الراغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ط، ١٩٨٣م)، ص٢٨.

سابعًا: صفات الإنسان في ضوء القرآن الكريم

إنَّ نظرة الإسلام للإنسان تنطلق أساسًا من أبعاده الإنسانية، وتلك الطبيعة الحرة، حيث لم يكلفه بما لا ينسجم مع طبيعته، ولم يقهره على ما لا يتناغم مع قدراته، ويتوافق مع استعداداته الفطرية، وقدراته الذهنية، وإن كان القرآن الكريم قد وضع الكثير من الضوابط التي تجعل من هذه الطبيعة البشرية قادرة على التجاوب مع ذلك الأفق الكوني لتحقق الارتقاء المطلوب منها تعزيزًا لتجاذبات تلك النفخة السماوية، وما تقتضيه من السمو، والصعود بالذات الإنسانية، وبالمقابل حتى لا تنحدر إلى تجاذبات الطين، والخلود إلى الأرض، والارتكاس بها في معترك الشهوات ونوازع الأهواء، دون أن يعني ذلك أنَّ القرآن الكريم قد مارس الكبت على هذه الطبيعة، وخاصة في نوازعها الفطرية، ودوافعها الغريزية، بل وضع منهجًا سليمًا يجعل من هذه الذات متوافقة مع هذه الطبيعة، وما ركب فيها من شهوات، وبين القيم الربانية التي تنظم مسار هذا الإنسان، وتسدد حركته في الوجود، فلم ينزل به إلى حضيض الحيوانية وغرائزها، وإنَّ هذه النظرة القرآنية لهذا الكائن تتسم بالواقعية في أعظم تجلياتها، وهذه الواقعية تعني أنَّ هذا المخلوق قد أوتي القدرة على الهبوط التي تنزل به إلى درك الحيوانية ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤]، كما أوتي القدرة على الارتفاع إلى أفق الملائكة، وبهذا كان الإنسان مع مهمته التكليفية بين الخير والشر، يتردد بين الطاعة والمعصية، والجدير بالذكر أنَّ القرآن في نظرته الواقعية للإنسان، والتي تخالف نظرة الديانات الأخرى التي حاولت النزوع بالإنسان للأعلى، متجاوزة طبيعته وضعفه، واحتياجاته الفطرية، فأوقعته في الكثير من الانحرافات عن الهدي السماوي، وطبيعة الإنسان الفطرية، إذ أصبح يعاند طبيعته ويقهرها، ويجبرها على الكبت، حتى أحدثت انفجارات رهيبة، وشطرت الكيان الإنساني فلا هو قادر على الأفق الروحي، ولا الالتحاق برفعة الملائكة، فنزل إلى حضيض الشهوات، وهذا ما لا ينسجم مع طبيعة التكليف، الذي جعل من الإنسان كائنًا مكرمًا، ومن صفوة الخلق، لما فيه من استعدادات، وطاقات روحية قادرة على تحقيق هذه الرفعة من خلال امتثال القيم السماوية، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد:٢٧].

ومن هنا فإنَّ القرآن الكريم يهدف إلى تحقيق التوازن في الذات الإنسانية، يقول مُحَمَّد قطب: "ووسيلته في ذلك أن يمسك بالإنسان من خيط الصعود، ليساعده على موازنة الثقل الذي يجذبه إلى الأرض، ولكنه لا يعنف في جذبه إلى أعلى حتى يمزق أوصاله، أو يقطع ما بينه، وبين الأرض من صلات، لأنه حين ذلك يفقده التوازن المنشود. والإسلام يكره فقدان التوازن ولو كان إلى أعلى، لأنه يحرص على أهداف الحياة العليا، التي لا تتحقق بغير الاستجابة لنوازع الأرض؛ وكل ما يعمله، ويهدف إليه، هو تنظيف الوسائل التي يستجيب بها الفرد لنوزاعه، حتى ترتفع الحياة كلها، وتصبح كريمة جميلة، خليقة بمعنى التكريم الذي أسبغه الله على الإنسان".

إذا كان الإنسان هو محور القرآن الكريم لأنه هو الذي استهدفه الخطاب الإلهي فقد تحدث المولى عز وجل في كثير من نصوصه على النموذج الإنساني الأمثل الذي يريده أن يكون خليفته في الأرض، وقد رسم القرآن الكريم لهذا الإنسان طريقه الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه في الحياة، وأفصح عن طبيعة هذا الإنسان، ومواصفاتها الدقيقة، وما يعتريها من مظاهر النقص، والضعف.

ثامنًا: الصفات السلبية للطبيعة الإنسانية:

يشير القرآن الكريم إلى بعض المواصفات السلبية للطبيعة الإنسانية، منها على سبيل المثال:

١ــ الضعف: في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، مما يعني أنَّ الضعف هو جزء من التكوين الذاتي للإنسان، وتتعدد مظاهر هذا الضعف: فمنه الضعف الجسدي، والنفسي، والعقلي، وغيره، لاسيما أمام مغريات الحياة، وشهواتها ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران:١٤]، وكل هذا ناتج عن أصل تكوينه، وعليه فإنه يحتاج إلى مرتكزات، وثوابت روحية كي يثبت أمام اختبارات الحياة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]، مما يعني أنَّ هذا الضعف الذي يكتنف الذات الإنسانية لا يمكن تجاوزه إلا بالارتماء في أحضان الحق، والالتزام بأحكامه، وترويض النفس البشرية على الطاعات، وتنمية قدراتها في الصبر، والثبات، وغيره.

٢ــ الهلع والجزع: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩ــ٢٠]، والجزع كما يعرفه البلخي: "هو فرط الحزن وشدته، وهو أعمل شيء في نهك البدن، وتغيير قوى شهوات النفس، ويفعل الحزن ضد ما يفعل السرور، وقد يتولد من التفكير في فقد محبوب، أو تعزز مطلوب، ويحتال لصرفه بحيلتين إحداهما من خارج، والأخرى من داخل، والتي من خارج فوعظ الواعظين، وتذكير الذاكرين، وأما التي من داخل فأبواب من الفكر يرض بها الإنسان نفسه"[١].

وقد اسْتَخْلَص ابن عاشور من خلال تتبعه لاستعمالات كلمة الهلع أنه: "قِلَّةُ إِمْسَاكِ النَّفْسِ عِنْدَ اعْتِرَاءِ مَا يُحْزِنُهَا، أَوْ مَا يَسُرُّهَا، أَوْ عِنْدَ تَوَقُّعِ ذَلِكَ، وَالْإِشْفَاقِ مِنْهُ. وَأَمَّا الْجَزَعُ فَمِنْ آثَارِ الْهَلَعِ"[٢]، كما اعتبره طبيعة كامنة في الإنسان بقوله: "أَنَّ الْهَلَعَ طَبِيعَةٌ كَامِنَةٌ فِيهِ مَعَ خَلْقِهِ تَظْهَرُ عِنْدَ ابْتِدَاءِ شعوره بالنافع، والضار فَهُوَ مِنْ طِبَاعِهِ الْمَخْلُوقَةِ كَغَيْرِهَا مِنْ طِبَاعِهِ الْبَشَرِيَّةِ، إِذْ لَيْسَ فِي تَعَلُّقِ الْحَالِ بِعَامِلِهَا دَلَالَةٌ عَلَى قَصْرِ الْعَامِلِ عَلَيْهَا، وَلَا فِي اتِّصَافِ صَاحِبِ الْحَالِ بِالْحَالِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا صِفَةَ لَهُ غَيْرُهَا،

---

١ أحمد بوعود، الإنسان في القرآن، (المغرب: منشورات الزمن، سلسلة شرفات، العدد:٣٩، ٢٠١٤م)، ص١٢٦، نقلًا عن البلخي، مصالح الأبدان والأنفس، ص٣١٤.

٢ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، د.ط، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج٢٩، ص١٦٧.

وَقَدْ تَكُونُ لِلشَّيْءِ الْحَالَةُ، وَضِدُّهَا، بِاخْتِلَافِ الْأَزْمَانِ، وَالدَّوَاعِي، وَبِذَلِكَ يَسْتَقِيمُ تَعَلُّقُ النَّهْيِ عَنْ حَالٍ مَعَ تَحَقُّقِ تَمَكُّنِ ضِدِّهَا مِنَ الْمَنْهِيِّ لِأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ عَلَى مُقَاوَمَةِ النَّقَائِصِ وَإِزَالَتِهَا عَنْهُ، وَإِذْ ذَكَرَ اللَّهُ الْهَلَعَ هُنَا عَقِبَ مَذَمَّةِ الْجَمْعِ، وَالْإِيعَاءِ، فَقَدْ أَشْعَرَ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُفَّ عَنْ هَلَعِهِ إِذَا تَدَبَّرَ فِي الْعَوَاقِبِ فَيَكُونُ فِي قَوْلِهِ: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ كِنَايَةٌ بِالْخَلْقِ عَنْ تَمَكُّنِ ذَلِكَ الْخُلُقِ مِنْهُ، وَغَلَبَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ"[1].

٣ــ عجلة الإنسان: في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١]. ولعلَّ التساؤل الجدير بالطرح هو كيف ينهى المولى عز وجل الإنسان عن العجلة، وهو قد خلق كذلك، كما يشير الحق إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧]، وهذا ما أجاب عنه الزمخشري بقوله: "فإن قلت: لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾، أليس هذا من تكليف ما لا يطاق؟ قلت: هذا كما ركب فيه الشهوة، وأمره أن يغلبها، لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة، وترك العجلة"[2]. وعليه فهذه الطبيعة بما فيها من ضعف، وعجلة هي معدّة أساسًا لاختبار قدراتها في هذا الامتحان الكوني العصيب.

٤ــ اليأس والقنوط: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء:٨٣]، و﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ(٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود:٩- ١٠]، وكذلك اليأس على حسب التوصيف القرآني، فالله لا ينبذه على المستوى النفسي، والذاتي فحسب، بل يرفضه القرآن كمنطلق في الحياة وتأثيراته على جميع العلائق الإنسانية؛ لأنه قد يصيب حتى العلاقة مع الله تعالى، ويخربها، والله يرفض هذا القنوط، وعدم التعلق بأسباب الرحمة الإلهية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فهذا التعلق بشآبيب الرحمة الربانية يدل على حياة الإنسان، حتى وإن استغرقته الذنوب؛ لأنَّ الله هو الذي خلق عباده، ويعلم تدافعهم بين الحق والباطل، والقوة والضعف، والطاعة والمعصية، واليأس والرجاء، والله دائمًا يفتح أبوابه لعباده المذنبين من خلال التوبة، وإعادة تجديد العهد مع الله تعالى، وانطلاق النفس في رحاب الطاعة والإيمان.

---

١ المرجع السابق، ج٢٩، ص١٦٨.

٢ أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ)، ج٣، ص١١٧.

٥ــ الخصيم المجادل: في قوله نعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٤]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧]، وقد أشار الأصفهاني إلى أنَّ الجدل يعتبر من الأمور المعيبة التي يجب أن تنتفض منها النفس البشرية، حيث قال: "ولم يذكر الخصام في موضع إلا عابه، وأيضًا فالمتجادلان يجريان مجرى فحلين تعاديا، وكبشين تناطحا، ورئيسين تحاربا، وكل واحد منهما يجتهد أن يكون هو الفاعل (وصاحبه هو المنفعل، وأن يكون هو الطابع)، وصاحبه المنطبع، والقائل كالمؤثر، والسامع كالمتأثر، ومتى لم يخضع المتأثر لقبول أثر المؤثر لم يتولد منهما خير بوجه"[١].

٦ــ الطغيان والظلم والجهل: الطغيان في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾ [العلق:٦]، والظلم والجهل في قوله أيضًا: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، والظلم كما قال الراغب الأصفهاني: "وَالظُّلْمُ عند أهل اللّغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه... والظُّلْمُ يقال في مجاوزة الحقّ الذي يجري مجرى نقطة الدّائرة، ويقال فيما يكثر، وفيما يقلّ من التّجاوز، ولهذا يستعمل في الذّنب الكبير، وفي الذّنب الصّغير، ولذلك قيل لآدم في تعدّيه ظالم، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظُّلْمَيْنِ بون بعيد"[٢]. وفسر ابن عاشور المراد بالظلم في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، بقوله: "فَمَعْنَى كانَ ظَلُوماً جَهُولًا أَنَّهُ قَصَّرَ فِي الْوَفَاءِ بِحَقِّ مَا تَحَمَّلَهُ تقصيرا بعضه عَن عَمْدٍ، وَهُوَ الْمعبر عَنهُ بِوَصْفِ ظَلُومٍ، وَبَعْضُهُ عَنْ تَفْرِيطٍ فِي الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْوَفَاءِ، وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِكَوْنِهِ جَهُولًا، فَظَلُومٌ مُبَالَغَةٌ فِي الظُّلْمِ، وَكَذَلِكَ جَهُولٌ مُبَالَغَةٌ فِي الْجَهْلِ. والظلم: الِاعْتِدَاءُ عَلَى حَقِّ الْغَيْرِ، وَأُرِيدُ بِهِ هُنَا الِاعْتِدَاءُ عَلَى حَقِّ اللَّهِ الْمُلْتَزَمِ لَهُ بِتَحَمُّلِ الْأَمَانَةِ، وَهُوَ حَقُّ الْوَفَاءِ بِالْأَمَانَةِ، والجهل: انتفاء العلم بِمَا يَتَعَيَّنُ عِلْمُهُ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا انْتِفَاءُ عِلْمِ الْإِنْسَانِ بِمَوَاقِعِ الصَّوَابِ فِيمَا تَحَمَّلَ بِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ ظَلُوماً جَهُولًا فِي فِطْرَتِهِ، أَيْ فِي طَبْعِ الظُّلْمِ، وَالْجَهْلِ فَهُوَ مُعَرَّضٌ لَهُمَا مَا لَمْ يَعْصِمْهُ وَازِعُ الدِّينِ، فَكَانَ مِنْ ظُلْمِهِ، وَجَهْلِهِ أَنْ أَضَاعَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْأَمَانَةَ الَّتِي حَمَلَهَا"[٣].

---

١ أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، (القاهرة: دار السلام، د.ط، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧ م)، ص١٨٧.

٢ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، (دمشق: الدار الشامية، ط١، ١٤١٢هـ)، ص٥٣٧.

٣ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢، ص١٣٠.

تاسعًا: الإنسان بين خط الخلافة[1] وخط الهداية[2]

يعتبر الخطاب الإلهي لآدم عليه السلام بالخلافة خطابًا ربانيًا يحمل أبعادًا تشريفية لهذا المخلوق الذي كرمه الله، وأناطه بحمل أمانة الاستخلاف، والتكليف في الأرض، وجعل هذه المهمة من أسمى الغايات وأنبلها، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]، ويعتبر هذا هو التكليف الأول الذي عهد الله به إلى بني آدم، مما يعني أنَّ الخطاب الرباني، وإن كان للخليفة الأول، إلا أنه استخلاف للنوع الإنساني كلّه، وليس لآدم فقط، وبهذا فإنه عليه السلام يعتبر الممثل الأول للإنسانية على خط الخلافة، كما جاء ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣١- ٣٤].

عاشرًا: مفهوم الخلافة ومستلزماتها:

أ_ مفهوم الخلافة: تعني في حقيقتها: "... معنى الخلافة عن الله هو إدارة الأرض، وبناؤها، وإعمارها على وفق إرادة الله"[3].

وإنَّ هذه المهمة تعتبر من أقدس المهمات التي كلف بها المخلوق الآدمي حتى يرعى حركة السير الإنساني في الاتجاه المستقيم، ويؤدي دوره في الكون من خلال اكتشاف سنن الله تعالى التي تحكم حركته حتى تسير وفق المنهج الرباني، ومقتضيات الهدي الإلهي، وتعمير الكون، وتحقيق الشهود الحضاري فترتفع حركة هذا المستخلف، وترتقي في بنائها المعنوي، والمادي بما يجعلها تنسجم مع مقتضيات المنهج الرباني، ويؤكد الدكتور عبد المجيد النجار على دلائل هذه الرفعة لهذا المخلوق بقوله: "وهذا التفضيل للإنسان، والإعلاء لشأنه بين سائر المخلوقات أظهرته قصة آدم، وما وقع فيها من أحداث، فقد بينت هذه القصة

---

١ يقول ابن منظور: "الخلافة: الإمارة، واسْتَخْلفه جعله خليفة، جعله مكانه... والخَلِيفةُ مَن يقوم مَقام الذاهب ويَسُدُّ مَسَدَّه". ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص٨٤-٨٢.

ويقول الراغب: "الخلافة هي النيابة عن الغير إمَّا لغيبة المنوب عنه، وإمَّا لموته، وإمَّا لعجزه، وإمَّا لتشريف المستخلف...". الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص١٧٥.

٢ "الهداية: التقدُّمُ للإرشاد... تقول: هدَيتُه الطَّريق هِدايةً، أي تقدّمتُه لأرشدَه، وكلُّ متقدّمٍ لذلك هادٍ... والهُدَى: خِلافُ الضَّلالة". ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٦، ص٤٢.

٣ مُحَمَّد حسين فضل الله، من وحي القرآن، (بيروت: دار الملاك، ط٢، ١٩٩٨م)، ص٢٢٧.

أنَّ الكائن الجديد أدى مقدمه إلى تغير جذري في النسب بين الموجودات، حيث أصبح القطب الوجودي الذي ترنو إليه المخلوقات جميعًا، حيث أصبح القطب الوجودي الذي ترنو إليه المخلوقات جميعًا، وتتحدد قيمتها بقدر ما تقترب منه أو تبتعد عنه، وما جاء من سجود الملائكة لآدم عليه السلام، وقد كانوا أشرف المخلوقات ونيلهم بذلك الرضى الإلهي، ومن امتناع إبليس من السجود، ونيله بذلك اللعنة والخسران، وإنما هو رمز لتحول في قطبية المخلوقات لتكون في صالح هذا القادم الجديد"[1].

ب_ مستلزمات الخلافة:

١_ تسخير الكون للإنسان:

قد ترتب على إثر هذه التراتبية في سلم الموجودات حقيقة مهمة تتجلى في تسخير الكون لهذا المخلوق حتى يتسنى له أداء دوره النيابي، ووظيفته الكونية باقتدار، من خلال دوره الفاعل في تعمير الكون، وتحقيق السيادة عليه، والتحكم في القوانين الناظمة لحركته، حتى يستطيع هذا الكائن الجديد أن يتحرك حركة وجودية، ويثمر عناصر الخير والصلاح، ويفتح الآفاق العلمية والمعرفية التي انطوت عليها أسرار الطبيعة، ويسخرها لخدمته، واستثمار خيراته ومدخراته، وإنَّ خط الخلافة يتطلب من هذا الإنسان أن ينمي قدراته الذاتية في اتجاه الله سبحانه وتعالى من خلال التزام مواثيقه، وأحكامه، وتشريعاته التي تنظم حركته في الحياة، وتضبط مساره على الأرض، مما يقتضي تنمية وتطوير هذه القدرات، ويتم ذلك على المستوى الذاتي، ويشمل جميع الأبعاد الروحية، والنفسية، والفكرية، والاجتماعية، وسائر النشاطات المادية، والمعنوية المطلوبة، وفي هذا الجهد تكريس لمبدأ الارتقاء بالذات الإنسانية المستخلفة حتى تنساق مع الحق قولًا وعملًا، كما تقتضي هذه الرحلة الإنسانية تطوير المجتمع، وتنمية قدراته حتى تتوسع نشاطات الإعمار، وتشمل الخط الروحي، والواقعي، حتى يسهم الجميع في عملية البناء، والإعمار، وحتى لا يضيع الجهد الإنساني، وتتبدد قدراته فقد وضع الله تعالى المنهاج الحق الذي يضبط خط الخلافة، ويحفظ مسارها من خلال منهج العبادة، كما يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

٢_ الصلاح والإصلاح:

إِنَّ حركة المستخلف لا تتم إلا وفق أوامر الله ونواهيه، ولذا فإنَّ الخلافة في المفهوم القرآني اكتسبت أصالتها، وروحها من كونها وظيفة تعبدية، وهي استئمان كما جاء التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، مما يفرض على هذا المستخلف أن يصون منجزات الخلافة وفق المنهج المستقيم الذي قرره الوحي الإلهي، ويتحمل كامل مسؤولياته تجاه هذا التكليف الرباني، والوفاء

---

١ عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص٥٧.

بمقتضيات هذا العهد الإلهي من خلال التزام خط الهدى الذي يضمن سلامة الخلافة بعيدًا عن دواعي الهوى؛ لأنَّ هذا يتنافى مع طبيعة الخلافة التي تقتضي التزام خط الهداية، ومقررات الوحي الإلهي، لتحقيق الصلاح والإصلاح، وإنَّ هذه المسؤولية تقتضي أن يكون المستخلف يمتلك حرية الاختيار، مما يعني أنه ووفق إرادته بإمكانه أن يصلح أو يفسد، وبهذه الإرادة يختار طريقه، ومسلكه في الحياة، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، ولما كان صلاح الإنسان مرتبط بإرادة هذا الكائن الحر المستخلف من قبل الله تعالى، فإنَّ حريته لا تعني إهمال الله تعالى له، بل تغير شكل الرعاية الإلهية لهذا المخلوق.

ومن هنا فإنَّ الملائكة قدموا أنفسهم كبديل عن الخليفة الجديد دون أن يفكروا في أبعاد هذا الاختيار، فهذا الإنسان الذي اختاره الله معززًا بحرية الاختيار، وحرية الإرادة لا يعني أنَّ الله تعالى سيتركه لنفسه، وأنَّ حريته لا تعني بالمقابل إهمال الله تعالى له، بل هناك تغيير في شكل هذه الرعاية، إذ لم تعد من خلال قانون طبيعي لا يتغير، ولا يتخلق كسائر قوى الطبيعة والكون، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، ولكنَّ الله تعالى عمد إلى تربية وتعليم الخليفة مقومات الرشد والاستقامة، لكي ينمي قدراته في ضوء الهدي الإلهي، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]، والذي سيكفله الله من خلال خط النبوة والرسالة، الذي يقدم الضمانات السماوية الكبرى التي تحفظ حركة الإنسان في الأرض، وهو ما يسمى بخط الهداية، وقرر الله هذا المبدأ في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨]، إنه الخط الذي تتجسد فيه أوامر الله ونواهيه، إنه مسلك الأنبياء والرسل، الذين جسدوا إرادة الله في الأرض من خلال أسلمة الحياة والقلب والروح لله تعالى، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]، إنه التزام الخط المستقيم الذي يضمن سلامة الحركة في اتجاه الخالق سبحانه وتعالى، ولا ينحرف عن الاتجاه الذي رسمه الله للإنسان، ذلك أنَّ الإسلام هو التوجه الوحيد الذي تتحقق فيه رغبات العالم، ويكتمل وفق معالمه النضج الإنساني، وكأنَّ الله سبحان جعل الملائكة تسود في السماء وتسبح في طاعة ربها وامتثال أوامره، وجعل الإنسان يسود الأرض ليحقق فيها منهج الله في الأرض، ويؤكد دلائل الامتثال، والطاعة لله رب العالمين، مع الفارق النوعي أنَّ الملائكة مجبولة على الطاعة، في حين أنَّ الإنسان يمتلك حرية الإرادة بحكم أنه مخلوق حر، وهذه الحرية هي التي جعلت الملائكة في حوارها تظهر عناصر الخوف من إمكانية الإفساد في الأرض من هذا المخلوق الذي تختلف عناصر تكوينه عن الطبعة الملائكية، فالإنسان يحيا في ظل صراعات متباينة تتدافع فيه قوى الحق والباطل، والصلاح والفساد، والإصلاح والإفساد، والطاعة والمعصية، مما أثار استغراب الملائكة الكرام حول طبيعة هذا الكائن الجديد، وكيف بهذه الطبيعة سيسهم في حركة البناء، والصلاح في الواقع

الأرضي؟ كيف سيتحكم في حركة الواقع، ويصونها من الانحرافات التي هي بالأساس جزءٌ من تكوينه الطبيعي.

وعلى إثر هذا فإنَّ الملائكة ترى أنَّها الأقدر على الالتزام بالهداية، من هذا المخلوق الذي قد يؤثر في الكون تأثيرًا سلبيًا بهذه الدواعي التي تفتح الباب أمام الإفساد في الكون، والله أراد أن يكون قوام الحياة على منهج الحق الذي يضمن حركة هذا المستخلف كي تسير في الاتجاه المستقيم، لكنَّ الله تعالى يبدد مخاوف الملائكة، وذلك بتقديم جواب كان بمثابة الضمانة الكبرى على مصير هذا الكون، والإنسان، وكأنَّ الله يلفت انتباه الملائكة الكرام إلى أنَّ هناك أسرارٌ كامنةٌ في هذا المخلوق، وما يمتلكه من أجهزة الوعي، والمعرفة، فهو قادر على أداء هذه المهمة، بل هو نسخة متميزة إذا ما التزم خط الهدى، وحافظ على صبغة الحق، كما قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:١٣٨].

٣_ قابلية الإنسان وجاهزيته:

إنَّ هذا المخلوق قد هُيِّئ في أصل خلقته لأداء هذا الدور، ويتضح ذلك من وجهين كما يقول عبد المجيد النجار: "طبيعة التركيب الذاتي للإنسان، فهذا التركيب يشتمل على جزء روحي يمكنه من السمو والعلو، نحو الأفق الإلهي الأعلى ليقتبس هذا الأفق مضمون الخلافة أمرًا ونهيًا، على سبيل الإدراك والاستيعاب والتحمل، كما يشتمل على جزء مادي، يمكنه من مباشرة الأرض بالسعي فيها للإنشاء والتعمير، فالإنسان من حيث تركيبته وضع في قمة الكون، وكرّمه الله بالنفخة الروحية ليكون قادرًا على أن تكون له حركة فعَّالة في مجال يتلقى في أحد طرفيه الأمر الإلهي، وينفذ في الطرف الآخر ذلك الأمر على مسرح الحياة، وذلك جوهر مهمة الخلافة"[١].

وعليه فإنَّ خط الخلافة يجسد إلى حد بعيد مسؤولية الإنسان في الأرض، ومدى وفائه بمقتضيات هذا الخط، ومستلزماته، ذلك أنَّ هذا التكليف الذي أبت السموات والأرض أن تتحمله، فقد تحمل الإنسان أمانة التكليف، وجعلها أساسًا مهمًا في معادلة الحياة، وذلك بامتثال المثل الربانية العليا في الأرض، وضبط العلائق وفق ضوابط المنهج، وتأسيس الحياة على ما اختاره الله هديًا للبشرية لصونها من دواعي الزيغ، والانحراف، والهوى، ودواعي الإفساد، وفتح المجال لممارسة الخير، وتأسيس منطلقات الصلاح في الكون، والتزام قانون الله الذي تسير عليه باقي المخلوقات في هذا الوجود، حتى لا يكون سلوك الإنسان اللاأخلاقي منحرفًا، فتوبخه جميع ذرات هذا الكون، التي تدين بالطاعة والتسبيح لمولاها الحق، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

---

١ عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص٦٤.

٤ــ وظيفة الإنسان بين الخلافة والهداية

إنَّ الواقع الإنساني يجسد حركة الحياة في الأرض، ومعادلة التغيير تنطلق من فقه هذا الواقع الذي تريد معالجته بناءً على معطيات الكتاب، وآفاقية العقل الإنساني الذي يرتقي بفهمه ليتجاوب مع هذا المنهج، ولما كانت الخلافة عن الله تعني تجسيد إرادة الله في الأرض، وامتثال أوامره ونواهيه، فإنها تمثل بهذا منهج الإنسان في الحياة في بعدها الفردي، والاجتماعي، والحضاري، والكوني، وتتناول مختلف جوانب الحياة، وتشمل جميع التصرفات البشرية، فتصبح الإطار الذي تظهر فيه مختلف النشاطات التعبدية، والممارسات الأخلاقية التي تشمل مختلف العلائق لتحقيق الصلاح، والسلم الكوني، سواء ما تعلق بعلاقة الإنسان بخالقه، أو بذاته، أو بمجتمعه، أو بالكون، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ولهذا لم يكلف الله هذا الإنسان بشأن الاستخلاف بعيدًا عن ترشيد الوحي الإلهي، الذي ينظم حركة الإنسان في الأرض، ويرشد مسارها، فتظهر آثار هذه التوجيهات، وتنعكس على السلوك، والفكر معًا، بل وتتجلى في حركة الواقع.

وبهذا المعنى فإنَّ التكليف الإلهي الذي عُهد به لهذا الكائن الحر الذي يحمل إمكانية الإصلاح والإفساد، يعتبر عاملًا مهمًا في التحقق بمنهج العبودية، والارتقاء بالحياة إلى مستوى من النضج والكمال الذي ينسجم مع مقررات الحق، وبهذا فإنَّ الإنسان يتحرك في الاتجاه الأعلى الذي يضمن سلامة الحركة، ويتحرك أفقيًا لتوسيع نشاطاته في الأرض بالبناء والتعمير، وتحقيق السيادة على الكون، وهذا هو الهدف القرآني: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، من وراء هذه المهمة الاستخلافية التي كلف بها، ولكن خط الخلافة في المنظور القرآني لا يتم إلا وفق منهاج العبادة، ومعنى ذلك إسلام النفس في كل ما يفعل الإنسان ويذر، كما يريده الله ويرضاه، عبر الالتزام الكلي بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه[1]، وهكذا تعتبر العبادة أساسًا مهمًا يتأسس عليه جوهر الخلافة في المنظور القرآني، فقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، يقرر حقيقتين أساسيتين، تتمثل الأولى في نفي أي غاية للوجود الإنساني غير العبادة، وتتمثل الأخرى في حصر غاية هذا الوجود في عبادة الله وحده.

إنَّ العبادة في المفهوم القرآني تتصل بجميع مناحي النشاط الإنساني، وتتسع دائرتها لتشمل كل قول أو فعل يصدر عن الإنسان، فحقيقتها تتجلى في حركة الواقع ومعتركه، وقصة آدم عليه السلام نموذج لترويض الإنسان على ضرورة التحكم في دوافعه ونزواته، حتى يجتاز امتحان التكاليف الربانية بسلام، وإنَّ جميع عمليات التغيير والإصلاح التي قادها الأنبياء والرسل، إنما كانت تهدف إلى إعادة ترشيد مسار

١ انظر، عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص٦٢.

الإنسان وفق الهدي المستقيم، وإعادة ضبط الواقع وفق مستلزمات خط الخلافة: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

١١- بداية الصراع وأطرافه:

قد اقتضت مشيئة الله تعالى أن يكون الصراع بين الحق والباطل هو سنة الوجود لحكمة أرادها المولى عز وجل، فكانت قصة آدم عليه السلام تحمل مؤشرات كبيرة على هذا الصراع بين أقطاب مختلفة، (الإنسان، الملائكة، الشيطان).

فأما الملائكة فتمثل خط الطاعة المطلقة لله رب العالمين، كما أكَّد القرآن هذا المعنى بقوله سبحانه: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وأما الشيطان فيمثل خطًا أصيلًا في الشر والمعصية.

ويبقى الإنسان بطبيعته المزدوجة التي خلقه الله عليها يتردد بين خط الطاعة والمعصية.

وإنَّ هذا الإنسان الذي استحق التكريم الإلهي، حيث توجه أمر الله تعالى للملائكة، وإبليس معًا بالسجود لآدم عليه السلام، فاستجابت الملائكة لأمر الله ممتثلة طائعة، وانسجمت مع هذا الأمر الرباني، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الإسراء:٦١]، ورفض إبليس السجود لآدم غرورًا واستكبارًا في ذاته، ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١]، معتقدًا أنه أفضل من هذا المخلوق الجديد، نظرًا لأفضليته العنصرية، ولم ير من آدم سوى طبيعته الترابية التي استهجنها، ولم يلتفت لتلك النفخة العلوية، وأسرارها العظيمة في هذا المخلوق الصغير، الذي انطوت فيه أسرار العالم كله، حيث انتصر في الملأ الأعلى بالعلم وسر المعرفة، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]، يبرز محمد حسين فضل الله تداعيات هذا الرفض من إبليس بالسجود لآدم عليه السلام بقوله: "أما إبليس فإنَّ الأمر يختلف لديه، لأنه لا يعيش هذا الجو الروحي إزاء أوامر الله ونواهيه، بل القضية عنده هي ما إذا كانت الطاعة لله منسجمة مع ذاتيته، ونظرته إلى نفسه، أو غير منسجمة، وكان السجود لآدم لا يرضي غروره الذاتي، وشعوره بالاستعلاء أمام هذا المخلوق الجديد على أساس عنصري... فما كان منه إلا أن تمَّرد، وأبى، واستكبر، وامتنع عن الطاعة"[١]. إنه الاستكبار ورفض الإذعان لأمر الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، بل قال أكثر من ذلك: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢].

هنا تبدأ المعركة بين قطبين مختلفين (الإنسان، والشيطان)، بين من اختاره الحق ليكون خليفته في الأرض، وبين الشيطان الذي يمثل خط المعصية، وكأنَّ القرآن الكريم في قصة آدم عليه السلام يكشف عن

---

١ محمد حسين فضل الله، من وحي القرآن، ط٢، بيروت: دار الملاك، ١٩٩٨م، ص٢٣٩.

طبيعة الصراع، والتدافع بين الحق والباطل، وبين الإنسان وعدوه، منذ أن عهد الله لآدم عليه السلام بالخلافة، وقد توعد الشيطان ذرية آدم بغوايتهم، وصدهم عن الصراط المستقيم، ليعبر بذلك عن مكامن حقده الدفين لهذا الإنسان، ويتربص به في كل خطوة يخطوها، لعله ينتصر عليه في معركته مع الحق، فإنَّ آدم عليه السلام قد أكل من الشجرة المحظورة في اختبار التكليف الأول تحت وطأة الغواية الشيطانية ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٥- ٣٦]. يقول عكاشة عبد المنان الطيبي: "ربما كانت ترمز للمحظور الذي لابد منه في حياة الأرض... فبغير المحظور لا تنبت الإرادة، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد، والتقيد بالشرط، فالإرادة هي مفترق الطريق، والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة، ولو بدوا في شكل آدميين"[١].

البعد الواقعي في القصة:

تعكس هذه التجربة اختبار قدرات آدم عليه السلام، وثباته على الخط السلوكي، فتكون بمثابة المحفز الرئيس لذرية آدم من بعده، بغلق المنافذ أمام الشيطان، من خلال الالتزام بأوامر الحق واتباع هديه، ومحاولة الثبات، ومقاومة نوازع النفس ورغباتها، والتي كانت مدخلًا للشيطان في تزيينه المعصية لآدم عليه السلام، فكانت سببًا في إخراجه من الجنة، ولهذا يكشف الله اللثام عن مخططات إبليس في صد آدم وذريته عن الجنة بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧]، وما وقع فيه آدم عليه السلام هو درس عملي لذريته، حتى لا ينسوا عهد الله وأوامره، ولكي لا يستجيب المرء لنزواته ورغباته، فقد كان الثمن باهضًا لآدم وذريته، وهو الهبوط إلى الأرض، ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦]، وهنا ومع هذا الهبوط الآدمي تبدأ معركة الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير ونوازع الشر، "وكان هذا إيذانًا بانطلاق المعركة في مجالها المقدر لها بين الشيطان والإنسان إلى آخر الزمان، ونهض آدم عليه السلام من عثرته، بما ركب في فطرته، وأدركته رحمة ربه، والتي تُدرك دائمًا عند التوبة، ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]، وتمت كلمة الله الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم عليه السلام، وذريته، عهد الاستخلاف في هذه الأرض، وشرط الصلاح فيها أو البوار"[٢].

---

١ عكاشة عبد المنان الطيبي، الشيطان في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب، د.ط، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د.ت، ص٩.

٢ المرجع نفسه، ص٩.

ولعلَّ المتأمل في تجربة آدم عليه السلام يدرك أنها امتحان رباني من الله تعالى بهذا التكليف الذي عهد به لآدم، وهو في حد ذاته تدريب لهذا الإنسان على تجاوز المحن والعقبات، وتحدي الشيطان، وسد المنافذ عليه، كما أنَّ هذه القصة توحي بمؤشر مهم، وهي التربية التي خضع لها آدم عليه السلام من قِبَل ربه، لتحريك قواه النفسية والروحية لمواجهة غواية الشيطان، نظرًا لما في هذه التجربة من ألم، وما أعقبها من ندم، لتجاوز أمر الله تعالى وعصيانه، ولكنها بالمقابل كشفت عن هذا العدو وأساليبه ومداخله، وفي هذا تعليم لذرية آدم عليه السلام، كما فتحت منافذ التوبة التي تتجلى من خلالها رحمة الله تعالى بخلقه فقد فتحت بابًا جديدًا لهذا المخلوق ليعود إلى الله تعالى، ويثوب إلى رشده. هذا الذي لم يحدث مع الشيطان، وبقي مستمرًا في استكباره، وحقده على آدم وذريته، ولم يتب في حضرة ربه على ما اقترفه من ذنوب، وهنا تحدث المفارقة بين الإنسان والشيطان، فما يمتلكه هذا المخلوق من قدرات وطاقات وعلم، تمكنه من معرفة الحق والعودة إليه، تنعدم عند الشيطان الذي لا يفكر سوى في المعصية وتزيينها للناس، من أجل إبعادهم وإجلائهم عن الطريق المستقيم، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩]، وعلى هذا فقد كانت فتنة إبليس على حد تعبير عائشة عبد الرحمن: "أثرًا لوقع النبأ الجديد على الطور السابق لآدم عليه السلام، والذي لم يتهيأ لغير الطاعة، والتسخير، كما كان إصراره على المعصية إيذانًا بالصراع المحتوم بين الخير، والشر، وتبيانًا للهوة السحيقة الفاصلة بين عصر الطاعة المطلقة، والتسخير التام، وبين ما ينذر به من إمعان في التمرد والانحراف إلى الشر والضلال"[١].

إنها تجربة استخلافية يتخللها الابتلاء والمحن، ويتعرض فيها الإنسان لشتى صنوف المغريات، وتتقاذفه الدوافع، والنوازع المختلفة بين الطاعة والمعصية، ومن ثم فهي ليست سوى معركة متصلة يتدافع فيها الحق والباطل، والخير والشر، والضلال والهدى، ويتحمل فيها الإنسان كامل المسؤولية التاريخية، والإيمانية على هذا المسار الحافل بالإنجازات الدنيوية، والتطور في الحياة، وما فيه أيضًا من انحرافات على النهج القويم؛ لأنَّ من سنن الله تعالى أن يكون أمام اختبارات الحياة فتن، وشرور، وأشواك على هذا الطريق، وإلّا كيف تمتحن قدرات الإنسان وإرادته على الاختيار، وكيف يصقل معدنه لتظهر ثمرة صلاحه وطاعته من عدمها.

وإنَّ القرآن الكريم وهو يستعرض جوانب مهمة من قصة آدم عليه السلام، يريد أن يُعلِّم الإنسان كيف يتحكم في رغباته ونزواته، ويتجاوز نقاط ضعفه، ومداخل الشيطان عليه، حتى يفلح في معركة الحياة، ولا يترك للشيطان مجالًا ليداعب هذه الرغائب، ويتلاعب به من خلال هذه الشهوات، والتي تجعله يفقد توازنه، وينزل إلى درك الحيوانية، ولهذا جعل الله تعالى الوحي لضبط مسار الإنسان حتى لا يعاني من

---

١ عائشة عبد الرحمن، القرآن وقضايا الإنسان، د.ط، القاهرة: دار المعارف، د.ت، ص٣٦.

التخبط، ويتيه في أودية الباطل، وكأنَّ القرآن الكريم يوضح لهذا الإنسان مكائد الشيطان، ويفضح أساليبه في غواية الإنسان.

خطوات الشيطان كما صورها القرآن:

قد رصد القرآن الكريم ضمن سلسلة من الآيات الكريمة خطوات الشيطان، ومداخله على بني آدم، وجلَّى هذا الدور الذي يقوم به في محاولة الإيقاع بالإنسان في الخطأ، والسقوط في حبال المعصية، "وهي خطوات تكاد تكون مترابطة، ومتداخلة إلى حد بعيد، وعليه فإنَّ طريق الشيطان لا يبدأ بتقليده في عمل ما، أو اتباعه في أثر ما، بل هي سلسلة تبدأ بالوسوسة، فالتسويل، والتزيين، بالتحسين تارةً، والتخويف أخرى، وبالتمنية مرة، والتسويف أخرى، ثم تتوالى الخطوات حتى يحصل الزلل فيقع الإنسان في المعصية"[1]، وإنَّ الوقوف على هذا التعبير القرآني بمعنى دقيق يعني بأنه: "المراحل الشيطانية الموقعة في المعصية، بدءً ببواعث تلك المعصية، ودواعيها في النفس، مرورًا بارتكابها، واكتساب الإثم، ثم انتهاءً بكون تلك المعصية مفتاحًا لما يتلوها من معاصٍ تنتهي إلى غاية الشيطان الكبرى، وهي إيقاع الناس في الكفر والموت على ذلك"[2].

وتتجلى أهم هذه الخطوات، والتي تمثل الدور الشيطاني الخطير فيما يلي:

أولًا: تزيين الباطل، وتحسينه في النفس الإنسانية:

حيث استعمل القرآن الكريم لفظ التزيين، والتسويل كدلالة واضحة على إحدى خطوات الشيطان، ودوره الفاعل في تزيين المعصية للإنسان، ويتجلى ذلك في قوله تعالى عن إبليس: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩]، "نسب الله تعالى التّزيين في مواضع إلى نفسه، وفي مواضع إلى الشيطان، وفي مواضع ذَكَرَهُ غير مسمّى فاعله، فممّا نسبه إلى الشيطان قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ﴾ [الأنفال:٤٨]، وقوله تعالى: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر:٣٩]"[3].

والتسويل مثل التزيين، فهو من قولهم: "سَوَّلْتُ لَهُ الشَّيْءَ، إِذَا زَيَّنْتَهُ لَهُ"[4]. فكلا الكلمتين (التزيين، والتسويل) تتفقان على معنى واحد، وهو تحسين المعصية، وتسهيلها لفاعلها... وورد التسويل مرتبطًا

---

١ عبد السلام حمدان اللوح، وائل عمر بشير، خطوات الشيطان، (مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، كلية أصول الدين، العدد الأول، ٢٠٠٨م)، ص١٤٣-١٤٤.

٢ المرجع نفسه، ص١٤٥.

٣ أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دمشق: دار القلم، ١٤١٢هـ، ص٣٨٩.

٤ أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط، لبنان: دار الفكر، ١٩٧٩م، ج٣، ص١١٨.

بالشيطان مرة واحدة في كتاب الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [مُحَمَّد:٢٥][١]. وقد فسَّر الطاهر ابن عاشور معنى التسويل بقوله: "وَالتَّسْوِيلُ: تَسْهِيلُ الْأَمْرِ الَّذِي يُسْتَشْعَرُ مِنْهُ صُعُوبَةٌ أَوْ ضُرٌّ، وَتَزْيِينُ مَا لَيْسَ بِحَسَنٍ"[٢]. فمن مكائده: "أنه يسحر العقل دائما حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذى يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء، وينفر من الفعل الذى هو أنفع الأشياء له، حتى يخيل له أنه يضره، فلا إله إلا الله. كم فتن بهذا السحر من إنسان، وكم حال به بين القلب، وبين الإسلام، والإيمان، والإحسان؟ وكم جلَّى الباطل، وأبرزه فى صورة مستحسنة، وشنع الحق، وأخرجه فى صورة مستهجنة.... فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة، وصاحب قابيل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أغرقوا، وقوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم"[٣].

وقد ذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة نماذج من تزيين الشيطان الكفر، والضلال للعباد، وصدهم عن الحق، وهذا ما يتجلى في سورة النحل التي أقسم الحق فيها على دور الشيطان في إضلال الناس، وصدهم عن السبيل، قال سبحانه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣]، يقول الطبري في تفسير هذه الآية: "فحسَّن لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر بالله، وعبادة الأوثان مقيمين، حتى كذّبوا رسلهم، وردّوا عليهم ما جاءوهم به من عند ربهم ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾، يقول: فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا، وبئس الناصر، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة عند ورودهم على ربهم، فلا ينفعهم حينئذ ولاية الشيطان، ولا هي نفعتهم في الدنيا، بل ضرّتهم فيها"[٤].

ثانيًا: تنسية الشيطان للإنسان في أوامر الله تعالى، وصرفه عنها:

وهذه من أهم خطواته ومكائده، حيث يعمد الشيطان إلى تنسية الإنسان أوامر الحق سبحانه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، قصد صرفه عن طاعته، وصدق الله إذ يقول: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩]، يقول الطاهر ابن عاشور عن هذه الآية: "أَنَّهُ اسْتِحْوَاذُ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَامْتِلَاكُهُ زِمَامَ أَنْفُسِهِمْ يُصَرِّفُهَا كَيْفَ يُرِيدُ وَهَلْ يَرْضَى الشَّيْطَانُ إِلَّا بِأَشَدِّ الْفَسَادِ، وَالْغِوَايَةِ. والِاسْتِحْوَاذُ: الِاسْتِيلَاءُ، وَالْغَلَبُ، وَهُوَ اسْتِفْعَالٌ مِنْ حَاذَ حَوْذًا، إِذَا حَاطَ شَيْئًا وَصَرَّفَهُ كَيْفَ يُرِيدُ... الْمَعْنَى أَنَّهُ أَنْسَاهُمْ تَوْحِيدَ اللَّهِ بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ،

---

١ انظر، عبد السلام حمدان اللوح، وائل عمر بشير، خطوات الشيطان، ص١٤٦.

٢ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٦، ص١١٦.

٣ مُحَمَّد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: مُحَمَّد حامد الفقي، د.ط، الرياض: مكتبة المعارف، د.ت، ج١، ص١١٠.

٤ مُحَمَّد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، ط١، د.م: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م، ج١٧، ص٢٣٦.

وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ. وَالَّذِي لَا يَتَذَكَّرُ شَيْئًا، لَا يَتَوَجَّهُ إِلَى وَاجِبَاتِهِ... اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فإنَّ الِاسْتِحْوَاذَ يَقْتَضِي أَنَّهُ صَيَّرَهُمْ مِنْ أَتْبَاعِهِ"[1]. وإنَّ النسيان يؤدي إلى الغفلة التي نهى الله عنها في كثير من آياته، وفي هذا تحذير من الله تعالى لسد منافذ الشيطان، حتى لا يدخل على الإنسان من هذا الباب، وحتى يكون حذرًا، ومتيقظًا، ولا يفوت عليه فرص الخير، وذلك بإلهاء العبد بأمور تبعده عن طاعة الله، وذكره، وهذا نوع من الاستدراج حتى يوقعه في المهالك، وارتكاب المحظور الذي نهى الله عنه، لأنه كل ما ابتعد القلب عن الحق، كلما سهلت مهمة الشيطان على اصطياده، والعبث به، وقد ضرب القرآن الكريم الكثير من الأمثلة التي تحذر من مكائد الشيطان، ومنها النسيان، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف:٦٣].

ثالثًا: الإغواء[2]:

حيث يسعى الشيطان إلى إغواء الإنسان، وإغرائه بشتى الطرق، والوسائل ليجعل بينه، وبين الله سبحانه سياجًا يمنع العبد من الاقتراب من الله تعالى، والثبات على منهجه، بل يعمل على الحيلولة دون تحقيق الإنسان لهذا الهدف، الذي يجعل من دنيا المسلم مزرعة للحياة الآخرة، فيعمد إلى فتح جميع أبواب الدنيا، وتزيين شهواتها لهذا الإنسان، حتى يتعلق بها قلبه، وتصبح هي هدفه الأساس في جميع رغائبه، ومختلف نشاطاته، وكأنها هي الخلود، وهذا العمل من أخطر ما يُمَنِّي به الشيطانُ الإنسانَ حتى يحول بينه، وبين الآخرة، إنه يُمَنِّي الإنسان بالخلود، ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه:١٢٠]، وغيرها من الخدع، والأماني الكاذبة التي تجعل الإنسان يخسر عمره في متع الدنيا الفانية، ويغفل عن التكليف الرباني، وما خلق من أجله، وهو عبادة الله تعالى، وقد فتح الشيطان باب الدنيا، والمنافسة فيها على كثير من الخلق، فأوقعهم في شباكها، وباتت هي الملاذ، والمأمن للكثير من الناس، وتعلقت بها قلوبهم حتى نسوا الله فأنساهم ذكره، وكأنهم سيعمرون فيها دهرًا كاملًا حتى يباغتهم الموت على حين غفلة، ولا يستفيقوا إلا على عتبة النهاية، ومواجهة المصير الحقيقي بين يديه سبحانه، كيف لا وقد صرفوا العمر في متع الدنيا الفانية، وزهدوا في الآخرة، إنها الأمانيُّ، والمغريات التي تعلقوا بها فسجنوا أنفسهم في شهوات الدنيا، وملذاتها، ومد لهم الشيطان في ذلك، ووسع لهم دائرة هذه الأماني، فأعاقهم عن النظر في عواقب حياتهم، والتبصر في مسار أفعالهم.

تجليات التوبة في قصة آدم عليه السلام

---

١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٨، ص٥٤.

٢ يقول ابن فارس: "الغين والواو والحرف المعتلّ بعدهما أصلانِ: أحدهما يدلُّ على خِلاف الرُّشد وإظلام الأَمْر، والآخرُ على فسادٍ في شيء. فالأوَّل الغَيّ، وهو خلاف الرُّشد، والجَهلُ بالأمر، والانهماكُ في الباطل...". ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٣٩٩.

تعتبر التوبة تجليًا عظيمًا من تجليات رحمة الله تعالى بعباده؛ لأنها تفتح الباب أمام الإنسان ليجدد علاقته مع الله تعالى، ويفتح منافذ جديدة للطاعة، والتزام أوامره، واجتناب نواهيه، ولأنَّ الله سبحانه هو الذي خلق هذا الإنسان بهذه الطبيعة المزدوجة، القابلة للارتقاء، والصعود في امتثال قيم الحق، وأيضًا إمكانية النزول، وارتكاب الذنوب والمعاصي، والخروج على منهج الله تعالى، وهنا تكمن الخطورة، في الضعف الذي قد يصيبه في ارتكاب الأخطاء، والانحراف عن السبيل القويم، ولهذا جاء تشريع التوبة مراعاة لطبيعة هذا الضعف الذي قد يكتنف الإنسان، ومن ثم إعادته إلى توازنه، وإلى التزام الطاعة، والاستقامة على الطريق، فكانت بذلك ضوءًا في طريق الحياة، تنير درب الغافل، وتوقظ الإحساس الإنساني، وتهز الضمير حتى يعود للرشد المطلوب، وبالمقابل فإن طلب آدم عليه السلام لهذه التوبة لما سقط في اختبار التكليف، يعتبر بمثابة قدرة الإنسان على العودة إلى الوضع الإيجابي، والتلقي عن الله، والعودة إلى تجديد العهد معه، وإعلان الطاعة من جديد كلما ارتكس في أوحال المعصية أو الذنب، وهذا في حد ذاته يعتبر همسة في ضمير هذا المخلوق حتى ينظر في مسار الطريق من جديد، إنها تحول كبير في الكيان الإنساني، وهو ينتفض من المعصية، والذنوب التي تقيد خطواته، وتعيقه على التواصل الروحي مع الحق، وبهذا فإن إعلان الإنسان في أعماق الضمير، والنفس عن معاني التوبة لهي انتصار له على نفسه الأمارة بالسوء أولًا، وعلى الشيطان، ووسوسته، وتزيينه، وإغوائه ثانيًا، كما أنها تعتبر بمثابة طاقة إيجابية تحرر الإنسان من أي طاقة سلبية قد تدمر الإنسان، وتزري به إلى درك الحيوانية، بل تمنحه الضوء الأخضر في العودة إلى الحياة، والتصالح مع النفس والخلق جميعًا، والتفاعل الإيجابي مع مقتضيات المنهج الرباني، ليكون بذلك الاعتراف بالذنب نقطة جوهرية في مسار هذا التحول، وأول مؤشر على العودة إلى رحاب الله تعالى وطاعته، والتعبير عن سلامة المجال الداخلي للإنسان، بعد التحرر من أثقال الذنب وأوزاره، وما يعقبه من ندم وحياء على هذا السقوط، والعزم على تصحيح الأخطاء، والرجوع إلى الله تعالى، ولهذا كانت كلمات آدم عليه السلام بعد السقوط في هذا الإغراء الشيطاني، بمثابة المفتاح الأول للإنسانية جميعًا، حتى تجدد طريقها، وتعود إلى الله تعالى، وتعلن باختيارها وإرادتها العودة إلى رحاب الطاعة، والتفيؤ في ظلالها من جديد، بل كانت كلمات آدم عليه السلام بمثابة الصفعة الأولى لإبليس وجنده، حيث أنَّ هذا الكائن الجديد فيه من القدرات والإمكانات التي تؤهله للعودة إلى الله، والنظر في الخطأ، وتصحيحه بعرضه على الحق، وإظهار الندم على هذا الانحراف، والاستسلام لهذه الغوايات الشيطانية التي تعترض سبيل ابن آدم في الحياة، لأنَّ الإنسان لم يخلق ليكون ملَكًا معصومًا لا يخطئ، فقد قال رسول الله ﷺ: "كل بني آدم خطاء، وخير الخطَّائين التوابون"[1]، فالإنسان لا يحيا في أفق الملائكة بنفس التسبيح،

---

١ رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال الألباني: حديث حسن، انظر، أبو عبد الله مُحَمَّد بن ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، د.ط، بيروت: دار الفكر، د.ت، ج٢، ص١٤٢٠، رقم

والتقديس، وإنما خلق ليمارس دوره في الخلافة، وعمارة الأرض، وبناء الحياة، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

الخاتمة

تشتمل الخاتمة على أهم النتائج التي توصل إليها الباحثان من خلال هذه الدراسة المتواضعة حول الهدايات القرآنية في قصة آدم عليه السلام، وهي كالآتي:

(١) حدَّد القرآن الكريم من خلال قصة آدم عليه السلام مفهوم الإنسان، فهو الجرم الصغير الذي يحوي أسرار العالم، وبيَّن مساره في الحياة الدنيا، وأوضح له معالم الطريق بخطي الخلافة والهداية.

(٢) إنَّ الإنسان في منظور القرآن الكريم يمثل القيمة العليا في سلَّم الموجودات، إذا ما استقام على نهج الهداية، وابتعد عن الغواية، وإنَّ قصة آدم عليه السلام تمثل حجر الأساس في إبراز معالم هذه الإنسية، وإظهار قيمتها المعنوية لكل بني آدم.

(٣) قد وضع القرآن الكريم معالم واضحة تبين مفهوم الإنسان والإنسانية، وطبيعة تركيبة هذا المخلوق، وكرامته، وحريته، وصفاته الإيجابية والسلبية.

(٤) تبيَّن للباحثين أنَّ خلافة الإنسان في الأرض تكليف وتشريف، غايتها تحقيق العبودية للرحمن، وتفعيل الشهود الحضاري في الأرض بالعمران، وأنَّ حركة المستخلف وظيفة تعبدية لا تستقيم إلاَّ على وفق الهدي الرباني.

(٥) إنَّ الصراع بين الحق والباطل سنةٌ كونيةٌ واقعيةٌ ممتدةٌ من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، وقد كانت تجربة آدم عليه السلام مع إبليس درسًا نظريًّا، وتدريبًا عمليًّا للإنسان في كل زمان ومكان.

(٦) إنَّ لإبليس اللعين دوراً في حياة بني آدم، يكمن في محاولة إغوائهم وتزيين السوء والباطل لهم، وصدهم عن الصراط المستقيم، متبعا في ذلك خطوات خاصة، وطرقا كثيرة ومتنوعة.

(٧) أنَّ آدم عليه السلام أوَّل إنسان تائب إلى الله تعالى، وأنَّ التوبة مظهر من مظاهر تجليات رحمة الله ببني آدم، إذا ما انحرفوا عن السبيل القويم، لِتُعيدَهم مجدَّدًا إلى الطريق المستقيم، وقد شُرِعت مراعاة للطبيعة الإنسانية، ولضرورة إعادة التوازن في حياة المسلم الواقعية.

المراجع

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط، لبنان: دار الفكر، ١٩٧٩م.

الحديث ٤٢٥١.

(٢) أبو القاسم الحسين الراغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ط، ١٩٨٣م.

(٣) أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، القاهرة: دار السلام، د.ط، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧ م.

(٤) أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق: الدار الشامية، ط١، ١٤١٢هـ.

(٥) أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دمشق: دار القلم، ١٤١٢هـ.

(٦) أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ.

(٧) أبو عبد الله مُحَمَّد بن ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، د.ط، بيروت: دار الفكر، د.ت.

(٨) أحمد بوعود، الإنسان في القرآن، المغرب: منشورات الزمن، سلسلة شرفات، العدد:٣٩، ٢٠١٤م)، ص١٢٦، نقلًا عن البلخي، مصالح الأبدان والأنفس.

(٩) عائشة عبد الرحمن، القرآن وقضايا الإنسان، د.ط، القاهرة: دار المعارف، د.ت.

(١٠) عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن، د.م: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، د.ت،

(١١) عبد السلام حمدان اللوح، وائل عمر بشير، خطوات الشيطان، مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، كلية أصول الدين، العدد الأول، ٢٠٠٨م.

(١٢) عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٨٧م.

(١٣) عبد الوهاب بوحديبية، الإنسان في الإسلام، تونس: دار الجنوب للنشر، د.ط، ٢٠٠٧م.

(١٤) عكاشة عبد المنان الطيبي، الشيطان في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب، د.ط، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د.ت.

(١٥) مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، د.ط، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

(١٦) مُحَمَّد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: مُحَمَّد حامد الفقي، د.ط، الرياض: مكتبة المعارف، د.ت.

(١٧) مُحَمَّد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، ط١، د.م: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.

(١٨) مُحَمَّد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، لسان العرب، دار صادر- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، ج٩، ص٨٤- ٨٢.

(١٩) مُحَمَّد حسين فضل الله، من وحي القرآن، بيروت: دار الملاك، ط٢، ١٩٩٨م.